

صناعة المصطلح في العربية

عبد الملك مرتاض

المصطلح: مفهوم يتمحّض لدراسة الألفاظ التّقنيّة المنصرفة إلى علم من العلوم، أو فنّ من الفنون، أو حقل من الحقول المعرفيّة. ويُعرّف المصطلح معجمٌ روبرير بأنّه لفظ خاصّ يُستعمل في حقل من المعرفة، أو في حقلٍ حرفيّ؛ أو هو مجموعة من الألفاظ التّقنيّة المنتمية إلى علم ما، أو فنّ ما¹. ويتألّف هذا المفهوم في اللّغات العربيّة بعامة من عنصرين اثنين؛ وذلك كما يمثّل في « Terminologie » الفرنسيّ. ولقد جاء العنصران الإثنان بالنسبة للفرنسيّة من « Terme »، وهو الذي جاء من اللفظ اللاتينيّ « Terminus » والذي معناه الحدّ؛ مضافاً إليه اللاحقة الإغريقيّة المعروفة « Logos » الواردة بمعنى العلم. فكأنّه يعني في اللّغات الأوربيّة بعامة علم الحدّ؛ أي العلم الذي يستطيع وضع الحدود للمفاهيم.

ذلك، ولم يُصنّع المصطلحُ بمعنى الدلالة المعرفيّة للمفهوم، في اللّغة الفرنسيّة مثلاً، إلّا في عام 1801 على يد الكاتب الفرنسيّ لويس سيباستيان مرسِي (Louis Sébastien Mercier, 1740-1814).

وجاء لفظ المصطلح، في اللّغة العربيّة، (وكان يطلق عليه في مبتدأ الأمر «الإصطلاح» من تركيبⁱⁱⁱ [ص ل ح] الذي من معانيه الإصلاح، والصّلاح، والمصلحة؛ ومن ذلك ما يعنينا هنا وهو «المصطلح»). فكان المصطلح في أصله يعني اتّفاق أناس على تخصيص لفظ ما لحقل معرفيّ معيّن يليق بالدلالة التي يودّون الانتهاء إليها من أجل مصلحة يجنونها خلاف ذلك الإستعمال. فكان الاصطلاح -أو المصطلح- بهذا المفهوم في اللّغة العربيّة، يعني الاتّفاق. ونلاحظ أنّ مفهوم المصطلح، في اللّغة العربيّة، لا يطابق مفهوم المصطلح في اللّغات الأوربيّة من حيث الإشتقاق والمعنى؛ ولكنّه يطابقه من حيث الوظيفة والدلالة.

وقد يكون المصطلح موروثاً منحدرّاً من الاستعمال العامّ للّغة كما يمثل ذلك في مصطلحات علماء اللّغة وعلماء الحديث معاً؛ وهو: «الزّاوية» الذي كان يطلق في أصله على الجمل الذي يُستَقَى عليه الماء. ولَمّا كان الزّاوية، في أصله، محمّلاً بالماء الذي هو رمز للخصب والنماء والحياة؛ فقد قاسوا حامل العلم على حامل الماء لثبوت العلاقة، ثم أطلقوا عليه الإطلاق نفسه. كما قد يكون المصطلح مستعاراً أو منقولاً من لغة أخرى؛ ويُنقل في مثل هذه الحال، في الغالب، بنصّه حرفياً، أو بتغيير طفيف في البناء أو الصّوت: كما يمثل ذلك في مصطلح «التلفون»، و«التلفزيون»، و«الرّاديو»، و«الفاكس».

والحقّ أنّ كلّ اللّغات الحيّة مُقيّضٌ لها لأن تُعطي وتأخذ في الوقت ذاته في مجال المصطلح؛ فالعربيّة أعطت اللّغات الإنسانيّة من المصطلحات الآلاف^٤؛ حتّى إنّ أكثر من ستّين في المائة من ألفاظ اللّغة الفارسيّة من أصل عربيّ. في حين أنّ اللّغة العبريّة تدين في مصطلحات نحوها للّغة العربيّة باعتراف اليهود أنفسهم^٥. ولقد ثبت أنّ ثلاثمائة لغة في العالم اتّخذت لها الحروف العربيّة أبجديّة لها، وخصوصاً في إفريقيا وآسيا حين كان التّاريخ تاريخاً، والعرب عرباً؛ وذلك على الرّغم من أنّ هذا العدد تقلّص على عهدنا هذا إلى زهاء خمسٍ وثلاثين لغة فقط. وأيّاً كان الشّأن، فلا يُخجلُ اليوم العربيّة أن تأخذ هي أيضاً من بعض اللّغات العالميّة الكبيرة لإثراء جهازها المصطلحاتي.

ونلاحظ، في هذا السّياق، أنّ كلّ حقّ من الحقول المعرفيّة يصطنع مصطلحاته الخاصّة له، الموقوفة عليه؛ وذلك مثل التّخصّصات العلميّة، والحرف، والصّناعات، والفنون على اختلافها. وتزداد اللّغة سعةً وثراءً كلّما هيئت لاستقبال علم جديد؛ فالمصطلحات السينمائيّة، ومصطلحات كثير من الفنون والعلوم الجديدة مثل الطّيران، وصناعة السيّارات، والإعلام الالّي، والصّناعات النّفطيّة لم يكن لها وجود في القرن التّاسع عشر. في حين لم يكن النّاس يعرفون كبير شيء ممّا يعرفونه الآن من المصطلحات المستخدمة في مجال الصناعة الإعلاميّة بأشكالها المختلفة. ويتبيّن لنا من بعض هذا أنّ أيّ لغة قابلة للتّطوّر إذا كان النّاطقون بها، من أهلها، قادرين على إثراء المعرفة، وتطوير حقول العلم.

ولقد كان أبو عثمان الجاحظ اهتدى إلى التدبير في هذه المسألة منذ اثني عشر قرناً حين لاحظ أن لكل قوم ألفاظاً حَظِيَتْ لديهم فتراهم يردّونها بأعيانها في استعمالاتهم^{vi}؛ وهو ما يُعرف اليوم بالّلغة الوظيفيّة^{vii} بحيث تجد أهل كلّ حرفة يصطنعون مصطلحاتٍ موقوفة عليهم: تتخذ دلالاتها معاني غير المعاني العامّة إن وُجدت؛ وإلاّ فإنّهم قد يصطنعون لغة (أي مصطلحات) لا توجد في الإستعمال المعجميّ العامّ.

ذلك، وإنّ أكثر اللّغات تطوّراً في العالم هي أقدرها على إيجاد المصطلح اللّائق للمعاني الحضاريّة الجديدة، والمستكشفات الطّائرة في كلّ حقول المعرفة. والّلغة القادرة على إيجاد المصطلحات المتمحّضة للحياة المحليّة، والعادات والتقاليد الفولكلوريّة كإيجاد آلاف المصطلحات للمرتفعات الحضاريّة القديمة، التي نعدّها نحن اليوم بدائيّة، ولكنّها كانت على عهدها مصطلحات تقنيّة لكلّ المُسمّيّات التي كان العرب القدماء يستعملونها في حياتهم اليوميّة، قد تكون من حيث المبدأ، وعلى مستويات متفاوتة من الكفاءة، قادرة على ابتكار أدقّ المصطلحات وأكثرها تعقّداً واعتياًصاً في حقول المعرفة؛ سواء علينا أكان ذلك متمحّضاً للعلوم الإنسانيّة ومفهمّة المعرفة فيها، أم متمحّضاً للعلوم الدّقيقة وتذليل المصطلح اللّائق بكلّ الوظائف التّقنيّة، وحركة الآلات الصّناعيّة وتضافرها فيما بينها لإنجاز وظيفة محرّك أو آلة أو جهاز لدى نهاية الأمر.

وكأَيّن من عربيّ يستهين بلغته ويحسبها قاصرة عن أن تَسع المعاني الجديدة المعاصرة تعبيراً؛ وذلك حين يُصيبه الإنبهار بقدرة اللّغات الغربيّة

على ذلك؛ وبخاصّةٍ منها الإنجليزيّة والألمانيّة والفرنسيّة؛ فيستسلم للقضاء والقدر، وينسى ما للعربيّة من طاقة مُعجميّة لا تنفد، لو وجدت من ينبش في بطون معاجمها، وينقب عبر أمّهات تراثها؛ ولو ألقت مجتهدين لغويين كباراً يفكرون في طبيعة عبقريّتها وأبنيّتها ومُرادفاتها وأضدادها وصيغ المبالغة فيها، وطرائق النحت والتركيب في ألفاظها، وقدرتها العجيبة على الإنزياح بمعانيها من وجه إلى وجه آخر دون أن تجد في ذلك حرَجاً أو عُسراً؛ لأنصفوا لغتهم واعتزّوا بها اعتزازاً يليق بمقامها في التاريخ.

والذي ينظر في العربيّة كيف كانت أيام الجاهليّة الأولى، ثم كيف أصبحت في العهد الإسلاميّ، ثم في العهود اللاحقة، ويقارن التطور الكبير الذي أصابها في تلك الأطوار التي اعتورتها؛ وكيف انتقلت معانيها من المحسوسة إلى المجردة بشكل مثير، يتبيّن له أنّ هذه اللّغة لم تكن لتكون لغة الشّعْر فحسب؛ كما يتّهمها بعض الذين يناصبونها العداوة والبغضاء؛ ولكنّها كانت لتكون، إلى ذلك، لغة فكرٍ وحضارة وتكنولوجيا. فلقد جدّ في هذه اللّغة، منذ ظهور الإسلام إلى نهاية القرن الثامن للهجرة، آلاف المصطلحات؛ ذلك بأننا نجد رُواة اللّغة يُنشئون مصطلحاتهم من عامّة الاستعمال اللّغويّ، ولم يأت رُواة الحديث النبويّ الشريف، وعلماء النّحو، وعلماء الأصول، وعلماء البلاغة إلّا بعض ذلك. وكان ذلك قبل أن يصل إلى العربيّة الفلاسفة والبياطرة والأطباء والرياضيّاتيون والفلكيّون والكيميائيّون والموسيقيّون والحرفيّون وسواؤهم؛ فإذا كلّ فريق من هؤلاء يضع لحقله المعرفيّ مصطلحات يردّها أو يُحاجّ بها... ولم نعر على أثر، في تاريخ الثقافة العربيّة،

لشكاية واحدة مكتوبة أو مروية، عن صعوبة ما ساورت سبيل العلماء العرب في إيجاد مصطلحات من لغتهم؛ ابتداءً من تعريب الدواوين الذي قام به صالح بن عبد الرحمن كاتب الحجاج بن يوسف الثقفي، وصاحب دواوين العراق^{viii}، إلى اختراعات الخوارزمي وجابر والكندي، واستكشافات ابن الهيثم، وعجائبيات الطبيب بختيشوع، وسواء ذلك مما ليس هذا مكان تفصيل القيل فيه..

ولا يقال إلا نحو ذلك في شأن العربية لو قارنا بين حالها في بداية القرن العشرين وكيف كانت ركيكة ضعيفة إلى حد بعيد حتى على مستوى النسخ الأدبي، وعاجزة عن استيعاب مصطلحات العلوم بشكل يدعو إلى الرثاء؛ وبين حالها لدى بداية القرن الواحد والعشرين وكيف اغتدت رشيقة صقيلة، وفتية حيية. وكل هذا التطور الذي أصابها إنما كان بفضل جهود العلماء، ومؤسسات التعليم على اختلاف مراحلها وأنظمتها، ومعها وسائل الإعلام الرصينة على تباين قنواتها... ولبعض ذلك أمتت العربية على ما نعرفها عليه في الوقت الراهن: رشيقة مصقولة، وحيية متحفزة؛ يحس مستعملها، المتحكم فيها، على أنها لغة في ريعان الشباب؛ وأن الزمن المتطاوّل الذي مرّ عليها لم ينل منها شيئاً، بل كأنه لم يزلها إلا جدّة وصقلاً؛ وذلك بفضل ما جدّت من إهابها، ونصرت من شبابها.

في حين لا نزال نحن اليوم نضج بالمُعانة والشكايَا، وننادي بالولايات والبلايا؛ وذلك أمام تكاسلنا وتقصيرنا، لا تقاصرنا، في حقّ التّحصيل اللّغويّ، من عجز هذه العربية عن أن تَسعَ مصطلحات العلوم والفنون والتكنولوجيا والمعلوماتية على العهد الراهن؛ فنؤثّر أن ننقل هذه

المصطلحات جاهزةً معلّبةً مقرّسةً؛ كما نوثر أن نستهلك ما يردّ علينا معلّباً مقرّساً من بضائع أهل الغرب النشطين العاملين، دون أن نفكر، أو نكاد نفكر، نحن في صنعها على نحو ما يصنعون.

ولقد نظرت في هذا الأمر طويلاً، وقلّبتّه على جملة أوجه فتبيّن لي بعد أمةٍ أن سبب هذه المحنة اللغوية، على عهدنا الزاهن، تعود، في الغالب، إلى أن العلماء الذين يشتغلون بحقول العلوم مثل الهندسة والرياضيات والطب والصيدلة والإعلام الآليّ وسائر الحقول التكنولوجية التي نراها، والتي قد تكون في نفسها حقاً كذلك، متناهية التعقيد: لا يعرفون العربية العالية التي تمكّنهم من إيجاد مقابلاتٍ عربيةٍ سليمةٍ لوظائف الآلات والأجهزة التي يتعاملون معها جملةً أو تفصيلاً. ولما لم يتّح لهم أن يتلقّوا تكوينهم العالي بالعربية السليمة؛ ولما كانوا قاصرين، أو متقاصرين، في التعامل مع هذه العربية باحترافية كاملة نتيجة لذلك؛ فقد وُسّوس لهم أنها عاجزة عن سعة تالك المعاني التكنولوجية اليومية التي يتعاملون معها في مختبراتهم وفي بحوثهم التي يكتبون، وفي محاضراتهم التي يلقّون، أو يتلقّون، فوقعوا في اليأس واستراحوا؛ في حين أن الحقيقة هي أنهم هم العاجزون.

وأما الذين يعرفون العربية في العالم العربيّ، معرفة كافية، فهم أساساً أساتذة اللغة العربية وأدباؤها؛ وهؤلاء لا يستطيعون إيجاد مصطلحات لوظائف آلات لا يتعاملون معها، ويجهلون أسرار ارتباطها، وعليّات علاقات بعضها ببعض؛ فكيف نطالبهم بما لا يجوز؟

وبين هاتين المفارقتين ضاعت العربية. وفي الحالين الإثنتين ليست المنظومات التربوية بريئة مما وقع للعربية من سوء الطالع، وتخلف عن بعض الركب الخابط.

وكان من الأولى تضافر جهود هؤلاء وأولئك، على صعيد واحد، وفي هيئة واحدة كأن تكون مجامع اللغة العربية أو مراكز البحث، من أجل ترقية العربية وجعلها تتواكب مع كل المستجدات والحاجات التكنولوجية. وعلى أن هناك، بنعمة الله، استثناءات في كفاءات عربية تُصادفُ هنا وهناك: تمثل في علماء يجمعون بين إتقان العربية بالإضافة إلى التمكن من الإمام الدقيق بتخصّصهم المعرفي. وعلى أمثال هؤلاء يُعلّقُ الأملُ في تطوير العربية.

ولعلّ من أجل ذلك نجد العلوم الإنسانية تُدرّسُ كلّها باللغة العربية في العالم العربي، ومنها علم الاجتماع، وعلم النفس، واللسانيات العامة، والحقوق، وسواؤها؛ وذلك على الرّغم من أن اللسانيات والسيّمانيات أمست في مصطلحاتها الدقيقة والمتجددة كالإعلام الآلي؛ تتجدد مصطلحاتها المعقّدة وتتطوّر كلّ ستّة أشهر على الأكثر. ومع ذلك فمعاظم المصطلحات اللسانية، وعلى تعقيداتها المتناهية الاعتياص، وسِعَتْها العربية المعاصرة استعمالاً واستيعاباً. في حين لا تبرح العلوم والتكنولوجيا، في كثير من الأقطار العربية، تُدرّسُ، باستخداء، إما بالإنجليزية وإما بالفرنسية بحجّة صعوبة العثور على المصطلح اللائق طوراً، والتطلّع إلى الرغبة في جني كثير من الثمرات في قليل من الأوقات، طوراً آخر.

وعلى الرغم من أنّ المفاهيم الإنسانية والتكنولوجية هي هي، مع الاعتراف بوجود بعض التفاوت بينها في الصعوبة؛ إلا أنّ اللسانيّتين استطاعوا أن يوجِّدوا المصطلحات العربية التي تؤدّي معاني المفاهيم المعرفية في اللغات الأجنبية؛ وذلك لتمكّنهم من اللغة من وجهة؛ ولتمكّنهم من معرفة المفاهيم في أصولها الأجنبية من وجهة أخراة. على حين أنّ علماء التكنولوجيا العرب هم غير ذلك شأنًا.

والذي يعود إلى حقلي اللسانيّات والسيّمانيّات ينبهر من هذا الفيض الفائض من المصطلحات الإنجليزيّة والفرنسيّة والألمانيّة للمفاهيم الجديدة التي على الرغم من أنّ العربية تجد صعوبات لا تُكسر في نقلها أو تعريبها إلا أنّها، إلى اليوم، استطاعت أن تنقل، أو تترجم، معظم هذه المصطلحات إليها. ولو بحثنا عنها في معاجمها منذ عشرين عاماً لما عثرنا لها على مصطلح واحد، بل لما تدخل المعاجم العربية إلى يومنا هذا؛ وذلك مثل: «التّمذّل» (وهو مصطلح من اقتراحنا)، أو «التّمعنى» (وهو مصطلح من اقتراح بعض المغاربة) الذي اتّخذ مقابلاً لمصطلح جوليا كريستيفا: «Signifiante»؛ و«المُواسِم» الذي اقترحناه مقابلاً للمصطلح الأجنبيّ «Sémiosis» (على حين لا يزال يستعمل في الكتابات النّقدية العربية على أصله تحت مصطلح «السّميوزة» [وربما كتبوه «السّميوزة» بجمع الساكنين الإثنين، وهو أشنع له وأسوأ]، وهي لفظة لا تعني في العربية شيئاً)؛ و«المُماثل» الذي اقترحناه مصطلحاً مقابلاً لقولهم: «Icône»؛ و«النّصنصة» الذي اقترحناه مقابلاً لقولهم في مصطلحات السيّمانيّات «Textualisation»؛ و«الإرجاء»^{ix} الذي اقترحناه مقابلاً لمصطلح دريدا (Jacques Derrida) «La

différance» الذي استعمله في تأسيس نظرية «التقويض» (La déconstruction) (مع ما نعلم من أن مصطلح جاك دريدا لما يدخل المعاجم الفرنسية الصادرة عام 1997؛ لأنه ينساق تحت ما يسمى «اللغة الجديدة» (Néologisme)، وهلمّ جرّاً إلى آلاف المصطلحات التي أمست مستعملة لدى علماء هذا الحقل، جارية بينهم، متداولة في تعاملاتهم...

ولما كان المصطلح يستدعي معرفة مسبقة باللغة، ومعرفة مسبقة بالحقل، أو التخصص المعرفي المتمحّض له؛ فإنّ العالم غير اللغويّ، أو غير المتمكّن من لغته تمكّناً عالياً على الأقلّ، لا يمكن أن نطمع فيه أن يأتي من الأمر ما لم يُقيّض له؛ فهو لا يعرف اللغة بالمقدار الذي يجعله يُبدع بها مصطلحاتٍ جديدةً لآلاته المعقّدة، وأجهزته المتطورة. وعلى أنّ هذا النقص المعرفي الذي يُمنى به العالم العربيّ على عهدنا هذا، لم يكن يمنى به العالم العربيّ في قديم الزّمان إذ كان العلماء على تلك العهود موسوعيّين في معرفتهم، متبحّرين في ثقافتهم؛ فكانت تُلّفي الفيلسوف لغويّاً ونحويّاً وموسيقياً وفلكياً وأصولياً ورياضياتياً وطبيباً وفقهاً ومتكلماً في الوقت ذاته (الفارابي، وابن سينا، وابن رشد مثلاً...). ذلك بأننا قبل إنشاء أيّ مصطلح جديد ونقله من أيّ لغة أجنبية حيّة علينا أن نجعله يمرّ بأربع مراحل لا يمكن الاستغناء عن إحداها بأيّ وجه من الوجوه:

المرحلة الأولى: البحث في الخلفية المعرفية للمصطلح، واستعمالاته عبر التاريخ، وما ذا عساه أن يعني في اللغة الأصلية التي اخترع فيها؟ وما

ذا كان معناه بين المتعاملين في الحقل المستعمل فيه؟ وكيف تطوّرت استعمالاته بين حقل وحقل آخر من العلم؟...

والثانية: لا مناص من النظر في أصوله الاشتقاقية التي استعمل بمقتضاها انطلاقاً منها في لغة الاستعمال الأصلية، والتي غالباً ما تكون إغريقية، وبدرجة أدنى لاتينية؛ وذلك كما يكون مندمجاً في عبقرية اللغة العربية، غير ناشز الاستعمال فيها.

والثالثة: لا بدّ من التثبت من صحة استعمال المصطلح صرفياً ونحوياً حتّى لا نشوّه العربية ونعيث فساداً في استعمالاتها؛ فنزيد الوضع سوءاً في البنّاعين: النحويّ والصرفيّ؛ ممّا يُسيء ذلك، في الغالب، إلى الجانب المعرفيّ أيضاً؛ كما يحدث ذلك بالقياس إلى النسبة، مثلاً، إلى مصطلح «البنية» في اللغة العربية المعاصرة حيث أمام ضعف عربية النقاد العرب المعاصرين، أو تسرّعهم في استعمال المصطلحات الجديدة، تراهم يقولون في النسبة (أو «الإضافة» باصطلاح سيبويه) إلى هذا المصطلح النّقدّي: «البنويّة» غير عابئين بأنّ مثل هذه النسبة كانت تكون سليمة لو أنّ اللفظ المنسوب إليه هو «البنية»؛ وذلك حتّى تقلب الياء الثانية واواً لدى تحويل البناء إلى النسبة. مع أنّ هذه المسألة بسيطة كما بحثها أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه (ت. 180 هـ.) في باب الإضافة من كتابه^{xi}؛ وذلك استناداً إلى مقرّرات علماء النّحو أمثال أبي عمرو بن العلاء (ت. 154 هـ.)، ويونس بن حبيب (ت. 205 هـ.) منذ ثلاثة عشر قرناً؛ فأنت إمّا أن تقول: «بنّي» (كما تقول في النسبة إلى فتية «فنيّ» على القياس؛ وهو اختيار أبي عمرو بن العلاء)؛ وإمّا

أن تقول: «بُنَوِي» (كما تقول في النسبة إلى فِتْيَة «فِتَوِي»، على التّخفيف؛ وهو اختيار يونس بن حبيب).

ولقد ينشأ عن ذلك أن استعمال «البِنَوِيَّة» خطأ شنيع؛ ولا يدلّ على شيء غير جهل بعض النّقّاد المعاصرين بالعربيّة الصّحيحة. ولا يمكن أن يُبرّر الخطأ بأيّ حجة. وأمّا قولهم: خطأ شائع خير من صواب نادر؛ فهو لا يعني شيئاً غير إثارة الصّواب على الخطأ، والفساد على الصّلاح، وترغيب النّاس في الكسل عن التّحصيل. ولو كان لغريم عليك عشرة آلاف دينار ديناً، ثمّ جئت إليه لتدفع له خمسة آلاف دينار فقط، على أنّها أصبحت تساوي عشرة آلاف؛ وأنّ النّاس جميعاً أصبحوا يعدّون خمسة عشرة، وعشرة خمسة، لما صدّقك، ولرفع عليك قضية في المحاكم... فمالنا نتساهل في الخطأ في مجالي الفكر واللّغة من أجل التّشويه والعبث باللّغة، ولا نتسامح في سوائيهما؟ ولا يقال إلّا نحو ذلك في النسبة إلى اللّسان واللّسانيّات حيث العلماء العرب المعاصرون يقولون: «لساني» ويستريحون والحال إنّهم طوّراً يريدون إلى اللّسان (La langue) الذي هو نظام من السّمات الصّوتيّة المتمحّضة لقوم ينتمون إلى مجموعة واحدة^{xii}، وطوّراً آخر يريدون إلى اللّسانيّات التي هي علّم يهدف إلى دراسة اللّغة والألسنة (Langage et langues)؛ وهما أمران مختلفان اختلافاً بعيداً؛ فكيف أجازوا الخلط بينهما؟ من أجل ذلك نقترح أن تكون النسبة إلى اللّسان لسانياً، والنسبة إلى اللّسانيّات لسانيّاتياً.

وعليّنا، أثناء ذلك، أن نتنبّه لدى اقتراح تعريب مصطلح بنقله إلى العربيّة كما هو، مثل «التلفون»، و«البترول» من أنّ المعنى الذي يُحيل عليه

لم يكن مستعملاً في الثقافة العربية القديمة الواسعة الغنى؛ وهنالك يمكن الإلتحاد إلى ذلك؛ ف«الهاتف»، مثلاً، يؤدي المعنى الغربي نفسه، بل ربما أمثل منه كثيراً؛ رأيت أنّ «الهاتف» في اللغة العربية القديمة، الجارية في مجرى المعتقدات الأسطورية، يعني صوتاً تسمعه ولا ترى شخص صاحبه؛ على حين أنّه يعني في الإغريقية مجرد «الصوت البعيد» (Télé ويعني البعيد، و phone ويعني الصوت)؛ مع العلم أنّ الشخص الذي يتهااتف معك قد يكون في مكتب مجاور لا يبعد عنك أكثر من بضع خطوات، فكيف يُعدّ بعيداً ما ليس ببعيد؟... على حين أنّ الناس كثيراً ما يستعملون «البترول» مكان لفظ النفط العربي القديم.

إنّا لو لم ندقق في استعمالات العربية على اختلاف حقول وظائفها الحضارية المعاصرة لتورطنا في ورطات لا منجاة منها أبداً. ومن الأخطاء التي شاعت في بعض الاستعمالات الإعلامية المعاصرة قولهم: «الخصوصّة» (يريدون إلى: «الخصّصة»^{xiii})، و«الجوسسة» (يريدون إلى «التجسس»، و«الشّروحات»، و«الطّروحات» (يريدون إلى الشّروح والطّروح: جمع شرح وطرح)؛ وذلك حتّى لا يقع القرن بين جمعين اثنين مختلفين للفظ واحد: جمع التّكسير، وجمع المؤنث السّالم.

وعلى أنّ أخطاء الاستعمال شرّ شائع في جميع اللّغات بما فيها الفرنسيّة والإنجليزيّة؛ فلا ينبغي أن تتهم العربيّة وحدها (وبالمناسبة كثيراً ما يقول الناس «لوحدها» خطأً، بدل «وحدها») في ذلك مجّاناً...

والآخرة: أنّ العلماء كثيراً ما يعمدون إلى لفظ معروف في الإستعمال العامّ للغة فيحوّلونه إلى مصطلح دالّ على معنى جديد لم يكن فيه لدى أصل الوضع؛ مثل لفظ «الإرجاء» الذي استعملناه مقابلاً لمصطلح دريدا،

كما سبقت الإيماءة إلى ذلك^{xiv}؛ وذلك ما كان العلماء العربُ يأتونه لدى تأسيس الحضارة الإسلامية اقتداءً بسبق القرآن إلى استعمالات نقلت معانيها من دلالة قديمة عامّة إلى دلالة جديدة خاصّة... كما نجد ذلك لدى علماء النّحو الذين اصطنعوا آلاف المصطلحات في عهد قصير مثل الفعل، والفاعل، والمفعول بأنواعه، والحال، والمبتدأ، والخبر، والنّعت، والجارّ والمجرور، والإختصاص، والنداء، والترّخيم، والمعرب، والمبني، والجملة... وكلّ هذه المصطلحات كانت في أصلها ألفاظاً مطروحةً في الإستعمال اللّغويّ العامّ... على حين أنّنا نجد علماء الحديث يتّخذون من المعجم العربيّ العامّ مصطلحاتٍ لتخصّصهم فيقولون مثلاً: الحديث، والرّواية، والرّواية، والتمن، والسند، والمرفوع، والمكذوب، والموضوع، والصّحيح، والحسن، والجيد، والمتواتر، والمنقطع، والتّعديل، والتّجريح... ولقد كان القرآن الكريم سبق إلى ذلك، كما سلفت الإشارة، بإنشاء لغة إسلاميّة جديدة لم تكن تدلّ في الإستعمال اللّغويّ العامّ لدى العرب على ما أصبحت تدلّ عليه في الآداب الإسلاميّة مثل المسلم، والمؤمن، والكافر، والمنافق، والجنة، والنّار، والمسجد، والصّلاة، والنّافلة، والزكاة، والصّيام...

ولقد ابتكر العلماء عدّة تقنيات استعماليّة لتطوير المصطلح العلميّ، وتيسير الاهتداء إلى إنشائه؛ ومن ذلك:

1. استعمال «اللاحقة العلميّة» التي كانوا يُطلقون عليها «الياء الصنّاعيّة». وهذه التقنيّة لم تكن موجودةً في العربيّة لا على عهد الجاهليّة، ولا في أوّل الإسلام؛ ولكنّها جاءت من توليد العلماء للدلالة

على المذهبية، والنزعة مثل قولهم: «السلفية» للدلالة على طريقة أهل السلف.

2. ومن ذلك استعمالهم بناء «فَعْلَلَة» للدلالة على جملة من المعاني الجديدة مثل «تلفزة». وربما قالوا أيضاً: «تلفن» فيكون المصدر هو «التلفنة» (وإن كان هذا المصدر لا تستعمل في اللغة العربية المعاصرة، وهي من أصل أجنبي على كل حال)؛ كما قالوا: «خصص» إذا حوّل التخطيط السياسي النظام الاقتصادي من القطاع العام إلى القطاع الخاص؛ وهي فصيحة عالية، على الرغم من عدم وجودها في المعاجم العربية فيما بين يدينا منها على الأقل، لأنها مقيسة على بناء «حصح» الحق، وحصح الشيء في الشيء، إذا تمكّن فيه...

3. ومن الاستعمالات الجديدة الفصيحة السليمة في العربية المعاصرة بناء فاعول الذي يشيع في العربية القديمة مثل الفاروق، والجاثوم، والباروك^{xv}؛ فبنّوا عليه فقالوا: صاروخ، وناسوخ (فاكس)، وحاسوب. ومن الناس من يطلق على هذا الجهاز العجيب مجرد مصطلح «حاسب»؛ مع أنّ هذا البناء لا مبالغة فيه؛ فهل حقاً جهاز «الحاسوب» مجرد حاسب؟ (ويجب، هنا، مراعاة الوظيفة التقنية التي تؤديها الآلة لاستعمال مصطلح لائق بطاقة 000 وظيفتها حقاً؛ ولو خُيرت أنا في تسميته لكنت أطلقت عليه «العاقول»، لسعة الذاكرة التي يحتويها...).

ولكنّ معظم الاستعمالات الاصطلاحية تؤخذ غالباً من اللغة العامة المستعملة، ثمّ تحمل بدلالة جديدة تخرج بها عن نطاق الاستعمال الجاري، كما يصادفنا ذلك في مصطلحات الإعلام الآلي: قرص، واستكشاف، وحقل، ورمز، وصورة، وحفظ، وفتح، وإنهاء، وإغلاق وملف، وتحرير،

وتنسيق... فمثل هذه المصطلحات هي في أصلها المعجمي ألفاظ ذات دلالات أخراة؛ فانتقلت الدلالة من عام إلى خاص...

ولعل الصعوبة التي تساور سبيل إيجاد مصطلحات جديدة في العربية: 1. إنَّ النَّاسَ، في عامَّتْهم، غيرُ متضَلِّعين في العربية القديمة التي كثيرٌ من معانيها يصلح لأن يُحْيَى، ويستعملَ في معانٍ عربيَّة جديدة (كما نجد ذلك في أمر الحافلة، والسيَّارة والقطار، وهلمَّ جزاء...)، بدلاً من الاستقاء من اللُّغات الأوربيَّة التي تستقي، هي أيضاً، من الإغريقيَّة القديمة، واللاتينيَّة المنقرضة.

2. إنَّ المضيَّ في نَحْت المصطلح من الخماسيِّ فقط كثيراً ما يُفضي إلى عرقلة علميَّة أكيدة ذلك بأنَّ الغربيِّين قد يبلغون بمصطلحاتهم العلميَّة والفلسفيَّة واللِّسانيَّاتيَّة وسوائِها في الطَّول إلى ثلاثة عشر حرفاً كما في الفرنسيَّة، وإلى خمسة عشر حرفاً كما في الألمانيَّة؛ وذلك على أساس أنَّهم يركِّبون المصطلح الواحد في الغالب من معنيين إثنيين؛ في حين نَعْمُدُ نحن إلى تركيبه، في السِّلوك المعاصر، إلى استعمال الوصف؛ فيغتدي المصطلح مركَّباً من لفظين إثنيين (أو قل من صفة وموصوف) مثل قولهم: «التَّحليل النَّفسيّ». وهذا أمر غير مقبول في صناعة المصطلح. ولقد عمدنا نحن إلى نَحْت مصطلح مركَّب من اللَّفْظين الإثنيين، فاقترحنا أن يُطلق على «التَّحليل النَّفسيّ»: «التَّخْلُفسيّ»؛ ذلك بأنَّنا لو صغنا هذا المصطلح خماسياً لَمَا أدَّى المعنى المقصود. ولكن يُعاب على استعمالنا أنَّه خرج عن البناء العربيِّ القائم؛ ونحن نجيب عن هذا أنَّ اللُّغة العلميَّة هي غير اللُّغة الأدبيَّة. وإذا أصررنا على التَّردّد في تطويل المصطلحات العلميَّة الجديدة بتقديمها في لفظ واحد كجميع

المصطلحات في كل اللغات الحيّة؛ فإنّ العربيّة توشك أن تظلّ تكابد هذا النقص. إنّ كثيراً من المصطلحات العلميّة الجديدة ننقلها بجملة من الكلام، وفي أحسن الأحوال بصفة وموصوف وإتّما المصطلح يجب أن يكون لفظاً واحداً متصلاً بسيطاً أو مركّباً، لا جملة من الكلام وحجّتنا في ذلك، أولاً، أنّه لم يَعدْ هناك عربيّ واحد على الأرض ينطق العربيّة على السّليقة التي كان الأجداد في الجزيرة ينطقونها عليها إلى نهاية القرن الثالث للهجرة على أقصى تقدير؛ وأنّ كلّ الذين يصطنعون المصطلح هم من العلماء؛ فأين التّخوّف؟ ولم التّردّد؟ إنّ اللّغة العلميّة بدون الإلتحاد إلى التّركيب المزجيّ والنّحت وسوائهما من وسائل الصّيّاعة العربيّة؛ فإنّ تطوّرها يظلّ في مجال العلوم والتّكنولوجيا محدوداً جدّاً.

ثمّ حجّتنا في ذلك، آخر أنّ اللّغة العربيّة لا ترفض أن يكون في ألفاظها تسعة حروف مثل قولهم: «المُسْتَشْزَرات»، مع أنّ هذا اللفظ العربيّ القديم الذي ذكره امرؤ القيس في معلّفته ليس مصطلحاً في أصله، ولكنّه لفظ من الإستعمال العامّ.

ولقد تناقشت في المدّة الأخيرة، أثناء حضري فعاليات ندوة ثقافيّة ببيروت، حول مصطلح «العوربة» الذي استعملته في ورقة ألقيتها بتلك الندوة العربيّة، قياساً على «العولمة» مع مثقّف سوريّ فزعم لي أنّه كان يجب استعمال مصطلح «التّغريب» بدل «العوربة»؛ فزعمت له أنا أنّ «التّغريب» ينصرف معناه، في ذهن المتلقّي، إلى الجهة، أي إلى المحسوس، وليس إلى الذهنيّ المجرد؛ أي إلى الدّلالة الحضاريّة التي نوّد من هذا المصطلح أن يحتملها. ولقد يمكن النّسج على استعمالنا

هذا الذي نطرحه لآراء العلماء لمناقشته فيقال مثلاً: «حدثن» تعبيراً عن
تصيير شيءٍ من الأشياء حدثاً؛ وذلك على أساس أنّ لفظ «التحديث»
ينصرف معناه لأوّل وهلة إلى مصطلحات علماء الحديث، لأنّه مصدر
«حدث»...

وأياً كان الشأن، فإنّا لا ننكر الجهود الشاقّة التي لم يبصرها العلماء العرب
يبدّلونها، في مختلف حقول المعرفة، من أجل تطوير اللّغة العربيّة وإيجاد
مصطلحات لائقة لمعانٍ جديدة فيها. غير أنّ كلّ ذلك لا يزال مفتقراً إلى
جهود إضافيّة مُمنهجة ومتضافرة إذا شئنا أن يكون للعربيّة شأن في
المستقبل، كما كان لها شأن في الماضي.

i André Lalande, Dictionnaire de philosophie ; Petit Larousse, terminologie.

ii Paul Robert, Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française, terminologie.

iii مصطلح "تركيب" لابن منظور. ويطلق المعاصرون على هذا المعنى مصطلح "مادة".
iv تراجع المستشرق الألمانية سيقريد هونكي في كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب».
v لقد ذكر ذلك أحد الأساتذة اليهود، في محاضرة ألقاها في الندوة العالمية التي انعقدت تحت عنوان: «الميراث الثقافي العربي في أوربا» وذلك عام أربعة وتسعين وتسعمائة وألف بجامعة ستراسبورغ للعلوم الإنسانية، بفرنسا.

vi الجاحظ، الحيوان، 3. 366.

vii النسبة التحويلية الصحيحة إلى هذا الحرف "وُظْفِي" (مثل مدينة، مَدْي)؛ ولكننا جارينا الاستعمال الشائع في العربية المعاصرة.

viii أبو العباس المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، 1. 355. هذا، ويقال: إنّ صالح بن عبد الرحمن كان يرى رأي الخوارج ويتكتم عليه. وقد فتنه بنو أمية.

ix كُنّا أول الأمر أطلقنا على هذا المصطلح الدَّريديّ «التأجيل»؛ وبعد تبادل الرّأي، في جامعة وهران، مع الدكتور أحمد يوسف استقرّ الرّأي على مصطلح «الإرجاء» قبل أن يعتدي مصطلحاً من مصطلحات قانون «الوثام المدني» في الجزائر.

X نحن نَميّز في النّسبة بين الرّياضيّ الذي هو إضافة إلى الرّياضة، والرّياضيّ الذي هو نسبة إلى علم الرّياضيّات.

xi سيبويه، الكتاب، 2. 70 ، تحقيق هرتويغ دُرْبُرخ، باريس، 1885.

xii Jean Dubois, et autres, Dictionnaire de linguistique, langue.

xiii زعم لي الأستاذ محمّد فارح، في حديث حول بعض هذه الأمور التي كنت بصدد طرح بعضها في صلب البحث، أنّه يجوز أن نقول: «الخصوصة»؛ وقد استدلّ على ذلك بقولهم: اعشوشب المكان (من «عشب») مثلاً. ونحن نشكّ في سلامة استعمال «الخصوصة»؛ لأنّ الاعشيشاب، والإخشيشان هو غير الخصوصية، بدليل أنّنا لا نقول: «اخصوص» ولا «الاخصيصاص» نتيجة لذلك؛ فكيف، إذن، يجوز ما لا يجوز؟ ثم لماذا نلتمس طائفة من الطوائف نحن في غنى عنها؟ أم أليست «الخصخصة» قائمة على قياسها على استعمال «الخصخصة»، وعلى بعض ذلك قسنا نحن حين أنشأنا مصطلح «التّصنعة»؟ وإذا كان لفظ الاعشيشاب لا بناء له على «فُوعِل»، أي بحيث يقال منه: «عُوشِبَ» كما يقال، خطأً في رأينا على الأقلّ، «خَوْصَصَ»؛ فكيف يجوز قياس شيء على شيء ليس من جنسه؟ والعرب تتجاف عن تكرار حرفين متجانسين متتالين فتحتال على الحيلولة بينهما بحرف آخر؛ كما رأينا في قولهم: «التّصنعة» و«العسعة»؛ فما بال الناس يجمعون، بعامةٍ بادية، بين الصّادين في لفظ «خصوصة» العامّيّ؟

xiv المُرجئة فرقة إسلاميّة مثل القدريّة وغيرها من الفرق الإسلاميّة تقول بعدم فقدان الإيمان بالخطيئة؛ وذلك على أساس أنّهم يرجون من الله أن يغفر للمخطئين ذنوبهم؛ وهي بذلك تناقض التّزعة الخارجيّة التي تكفّر صاحب الذّنب اللّهم...

xv يشكّ في عربيّة «الكابوس» بالمعنى الشائع في العربيّة المعاصرة ترجمة للفظ الفرنسيّ «Cauchemar». ومن الأمثل أن نستعمل في اللّغة الأدبيّة على الأقلّ «الجاثوم» أو «الباروك»؛ وإن كنّا نميل إلى سلامة لفظ الكابوس بناء على معاني القوّة والصّلابيّة التي يؤدّيها في الدّلالة المعجميّة العربيّة.